الشيخة سلطانة الزبيدية

(١)

فرع الدراسات وخدمة التراث
الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

الشيخة سلطانة الزبيدية

(ت ٨٤٣ هـ)

الغلاف الداخلي


بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني..

﴿إنَّ المُسْلمينَ والمُسْلماتِ والمُؤْمنينَ والمُؤْمنـ ـاتِ
والقانتينَ والقَانتـ ـاتِ والصَّـ ـادقينَ والصَّـ ـادقاتِ
والصَّابرينَ والصَّابراتِ والخَاشـ ـعينَ والخاشـ ـعاتِ
والصَّادقينَ والصَّادقاتِ والصَّائمينَ والصَّـ ـائماتِ
والحافظينَ فُرُوجَهُمْ والحافظـ ـاتِ والـ ـذَّاكرينَ اللهَ
كَثيراً والذَّاكراتِ أَعَدَّ اللهُ لهَـ ـُمْ مَغْفِـ ـرَةً وأَجْـ ـراً
عَظِيماً﴾

[الأحزاب: ٣٥]


(٦)

الإهداء

إلى جيلِ النِّساءِ السّابحاتِ في يَمِّ الغفلةِ العصريَّة..

وإلى فَتَياتِ الثَّقافةِ الإعلاميَّة من ضحايا الإداراتِ والوزارات..

وإلى مَن بَقِيَ مِن أُولاتِ العِفَّة والصَّون.. رَبّاتِ البيوتِ القانتاتِ العابداتِ..

هاكُمْ أَحَدَ الأمثلةِ النَّاصعةِ في حياةِ أسلافكم..

وشَتّان ما بينَ الحياتينِ..

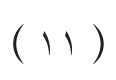
المُؤَلِّف


(٨)

سُلْطانَةٌ هِيَ كاسمِها سُ لطانةْ
خُصَّتْ بتوفيقٍ وجَذْبِ إعا ـةْ
مِن ربِّها سبحانَهُ قد خَصَّ ـها
بخصائصٍ وأَظَلَّها ـا إحسـ ـانَهْ
وبرؤيةِ الهادي مناقبُها سَمَ ـتْ
ولقد سَمَتْ بعَفافـ ـةٍ وصِ ـيانةْ
ميمونةٌ في دهرِهـ ـا نَشْ ـوانَةٌ
مِن حُبِّ مولاها تُرى سكرانةْ

لصاحب الحمراء الشيخ عمر بن محمد باعلوي

((التِّرياق الشّاف)) ص٤٩


(١١)

المقدمة

الحمد للّهِ رَبِّ الكون.. ومنه نستمد المدد والع ون.. ونص لي ونسلِّم على سيِّد هذه الأمَّةِ.. الذي كشف اللّهُ به الغُمَّة.. رس ولِ اللّهِ إلى الكافَّة محمدِ بنِ عبد اللّه.. صلى اللّه عليه وآله وأص حابه الأئمة الكرام.. وعلى التابعين لهم بإحسانٍ وصدقٍ واتِّباعٍ إلى يوم اجتماعِ الأنام.. بأمر الملك العلاّم.

وبعدُ فيقول العبد الفقير إلى عفو مولاه أبو بكر العَدني ابن علي المشهور: إنّ من نعمة اللّه التي يجب التحدثُ بها وتعميمُ خبرها بين الخاص والعام.. ما حرك اللّه به العزم لخدمة أس لافنا الص الحين بحضرموت، وإعادة صياغة تراجم حياتهم رجالاً صالحين ونس اءً صالحاتٍ ، ليقرأَها جيلُ عصرِنا بلسان الحاضر من جه ة، وس دِّ ثغراتٍ معينةٍ أراد المُغْرِضون الدخول من ها إلى الطع ن المقص ود والمبَيَّت في عقائد رجالٍ ونساءٍ صدقوا ما عاه دوا اللّ ه علي ه ؛ ليوهموا جيلَ الإعلام والأزلام أن السلف الصالح عبدوا اللّهَ على غير بصيرة.. وشغلوا الجيل بهذه التُّهَم المُرجِفة عن معرفة الحق وأهل ه ،

وعزلوا بينهم وبين التاريخ الناصع.. ووجهوا أنظارهم إلى عيوب الماضي مع إهمال الواقع.

وفي هذه الترجمة أخذنا طرفاً من حياةِ امرأةٍ تقيَّةٍ صالحةٍ عاشت في وادي حضرموت ، وبرزت في ميدان «التصوف» علماً من الأعلام حتى أَطلَق عليها علماءُ التاريخ «رابعة حضرموت».

امرأةٌ من قبائل كِندة.. انطَوَتْ في مدرسة آل البيت النبوي وتأثرت بها.. وأثبتتْ للعالم والتاريخ أن هذه الطريقَ ومقاماتِها ليست حَكْراً على أسرةٍ ولا سلالةٍ ولا جماعةٍ ولا تَيّار.. وأنَّ الاحتكارَ صفةُ التَّجار الفجّار في آخر الزمان يوم يصيرُ العلم مقبوضا.. والحكمُ عَضوضا..

فاقرؤُوا معي هذه الترجمةَ لتتَّضِحَ لكم معالم الطريق.. وبالله التوفيق .

المُؤلّف

من هي الشيخة سلطانة ؟

هي سلطانة بنت علي الزُّبيدية نسبة إلى آل الزُّبيدي، وهم من قبيلة بني حارثة الكِنْديّة ، وقيل: من مَذْحِج[1].

وُلدت الشيخة سلطانة ببادية العُرّ ، وهي العراء الممتد شرقي قرية «مريمة» إلى نهاية الحوطة المعروفة اليوم بحوطة سلطانة ، وتبعد عن مدينة سيئون بنحو ثلاثة أميال [2] ، وهي البادية التي كانت تسكنها قبيلة «آل الزُّبيدي» وهم من القبائل الكِندِيّة المسلحة التي أُثر عنها مثل غيرها من القبائل الشدة والبأس.

نشأت سلطانة في أسرةٍ بدويّةٍ تُعنى بأمور الرعي والماء والكلأ وشرف الذات والنزعات وما شابهها في حياة البداوات.. إلا أن نفسية هذه الفتاة كانت على غير ما يعهد في سائر الفتيات.. حيث

---

(١) «أدوار التاريخ الحضرمي» للشاطري ص٣١٠ بتصرف .

(٢) يؤيّد هذا المَنحى أنهم من مذحج ما قاله ابن شهاب في «ديوانه» يمدح به أبابكر الزبيدي ص١٨٤ :

مِن سِرّ سادة مذحِجٍ مِن آل قَحْ . .

. . طانٍ وقَحْط ـانُ الكِـرامُ السُـبَّقُ

كانت تميل إلى الهدوء والعزلة عن مثيلاتها المستغرقات في فجاجة الصبيان وانهماكهم فيما يبدو حولهم من الظواهر والمظاهر السطحيات ، وما أن كبرت قليلا حتى بدأت تشعر باستقباح سلوك البداوة من ظلمٍ وبطشٍ وأذىً ، وتتطلع إلى نداء الفطرة العميق الذي كان يجذبها إلى نور الإيمان.. ويهديها إلى أسباب الاطمئنان.. وكان أفضل ما يساعدها على هذا النداء الفطري سُكون الليل وهدوء العراء الفسيح ، وسماع أخبار الصالحين وأحوالهم في أمسيات القبيلة وأحاديثهم.

وتَعَمَّق هذا الاتجاه الفطري في نفس الفتاة ونَمَا مع نُمُوِّها العُمْرِيّ وهي ترى في « الواقع الحضرمي » وتسمع عن عُبّادٍ وزهاد وعلماء أتقياء صلحاء يتناقل البدو أخبار كراماتهم ، ويخشى حَمَلَةُ السِّلاحِ قوَّتَهُم الروحيَّة وإيمانَهم المتين ، ويهابهم الخاص والعام ، بل ويبلغ من قوة آثارهم النورانية قدرتهم الخارقة على فَضِّ النزاعات وإيقاف الحروب الطاحنة بين القبائل دون الحاجة إلى سلاح أو عتاد ولا جيوش مقاتلة.

أخذتْ هذه الفتاة النيِّرة تتابع أخبار هؤلاء الصلحاء وتتقصى أنباء نشاطهم وحركتهم في الوادي ، وتسعى بقدميها إلى أقرب المساجد تنظر إلى طلعة النور المتجلي على رجالهم ودعاتهم كلما ترددوا على البادية وما جاورها ، ينشرون الدعوة إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان لها بهذه النظر والمتابعة إضافةٌ وإضافة تَبني في داخل نفسيتها الغَضَّة بيتاً من التصوف في أسمى صوره الفطرية وعطاءاته الأَوَّلِيّة.

لقد انتقش في قلب الفتاة الخيِّرة كثيرٌ من المواعظ والمذاكرات التي سمعتها، وانتعشَ رَوحُها ورُوحها بممارسة الكثير من أعمال الطاعات صلاةً وصوماً وأذكاراً وانشغالاً تامّاً بها وبما شاكلها من أفعال الصالحين.. تلك الأفعال التي استحوذتْ على كل همِّها وهِمَّتها حتى كادت أن تأخذ عليها جُلَّ وقتها وهي لم تزل بعد في سن اليَفاع .

رابعة حضرموت

هكذا أطلقَ عليها المؤرِّخون الاسمَ ، وكان مناسباً لحالها ومقامها، فالشيخة سلطانة قد أخذت منذ نعومةِ أظفارها بطريق التصوف سلوكاً وحالاً، وتفوقت بهذا على رابعة العدوية في التاريخ الإسلامي ، وفي هذا المضمار كتب المؤرخ السيد محمد بن أحمد الشاطري في « الأدوار » :

« وتختلفُ عن رابعةَ في كونِها مِن حينِ نشأتِها وهي متدرِّجةٌ في أحوالِ ومقاماتِ الصوفية »[1].

لقد تهيّأ للشيخة سلطانة الأخذُ بطريق التصوف في سنٍّ مبكرةٍ ووَجَدَت الطريق ممهداً لها في كل موقع من مواقع الوادي ، وبرغم أنها كانت تسكن بادية العُرّ حيث يَسْكُن أهلُها وقبيلتُها إلا أن العديد من علماء تريم ودعاة الوادي في سيؤون والغرفة وشبام وغيرها كانوا يترددون على تلك الناحية خلال أيام الأسبوع ، ويمرون بتلك البادية ويشنفون الأسماع بالحكمة والموعظة الحسنة ويستجذبون حملة السلاح إلى أدب الإسلام ومعرفة حقوق أهله.

(١) « الأدوار » ص٣٠٨ .

وكان وضع البادية وأسلوب حياتهم يساعد الشيخة سلطانة على البروز باحتشام في أخريات المساجد. وفي أطراف حلقات العلم والدعوة إلى اللّه وحضرات الذكر لتنعم بسماع المذكرات وليهدأ بالها ويحيا وجدانها الفطري بأناشيد الصلحاء وأنغام المواجيد المألوفة آنذاك ، وصارت الشيخة سلطانة مألوفة لدى الخاص والعام في تلك الناحية بهذا التفرد الغريب والتوجه العجيب.

والغرابةُ والعَجَب فيه أَنْ واقع قبيلتها البدويّ وبيئتها القبلية لا تَأْلَفُ مثل هذه الأحوال ، فالقبائل البدوية بحضرموت تحوالي آل البيت وتحبهم وتميل إلى المشايخ ورجال العلم وتحترمهم وتكرم مَن جاء منهم لنشر العلم وبث الدعوة إلى اللّه ؛ لكنَّهم لا يجدون في أنفسهم أي استعداد لقَبول فكرة التصوف الداعي إلى ترك السلاح الظاهر والاهتمام بالسلاح الباطن وهو العلم والعمل هذا في الرجال، وكذلك نساؤهم فهم يألفون حياةً خاصةً لا علاقة لها بالمواجيد والوعظ وحلقات الذكر والاستغراق في مفاهيم الأحوال ومراتب الرجال .

لكن رابعة حضرموت ((سلطانة بنت علي)) كانت ذات عزمٍ وتصميمٍ وقوةِ إرادةٍ استطاعت بها أن تنتزعَ الإعجابَ الطَّوْعِيّ من

قبيلتها أولاً ثم تجد من شيوخ عصرها غاية العناية والاحتضان والرعاية . وكانت إشارات القبول وعلامات الإقبال باديةً عليها ومُلِحَّةً على جوارحها مرحلةً بعد مرحلةً، حتّى اشتهر صيتُها وخبرُها في الوادي .

والوادي كلُّه قائم في علاقاتِ رجاله وعلمائه وصلحائه على حسن الظن بالعباد الصالحين، ومقياس الجميع في هذه القاعدة هو ((الاستقامة وملازمة مواقعها والجلوس مع رجالها وشيوخها))، وهكذا كانت رابعة حضرموت.

لقد أثبتت الشيخة سلطانة منذ صباها أنها خير من يقوم بأهم أعمال الأسرة في الحياة اليومية، فهي ((تقوم بالغزل والنسيج وتربية بعض الدواجن وإعداد الطعام وطبخه للأسرة وغير ذلك))[1] كما أنها في ذات الوقت ((تقيةٌ صبورةٌ متصوفةٌ واعظةٌ مرشدةٌ لهم)) ، وهي أيضا مثال العفة والطهر والنزاهة والشرف ، ترعرعت في جوٍّ مفعم بالكرامة والأخلاق المتوارثة عن القبيلة، وزادَها الأخذُ بالتَّصَوُّفِ سُمُوّاً وعفةً والتزاماً أرقى.. وصدقاً وإيمانا أنقى وأبقى.

(١) المصدر السابق .

كيف اقتنعت قبيلة سلطانة بمنهجها الصوفي ؟

شاءتِ الأقدارُ خلال ظهورِ الشيخة سلطانة في باديتها أن يظفر بعض أفراد أسرتها وهم ((حَمَلَة السلاح)) بـ بعيرٍ تائـ ـهٍ في بعـ ـض الطريق، فأخذوه غنيمة لهم ، وكان هذا البعير ملكاً للشيخ الصالح ((محمد بن حكم باقشير))، فلما بلغه الخبر دعا اللّه سبحانه وتعـ ـالى أمام الملأ أن يهديهم إلى سبيل الرشد إن كـ ـان دافعهـ ـم الحاجـ ـة والفاقة.. أو أن ينتقم منهم إن كان واقعهم البطر والظلم.

ولما كان تركيب هذه البداوة هو الفطرة التي فطر اللّـ ـه النـ ـاس عليها برغم ما شابها من سورة النفس والشيطان إلى الظلم والنهب، فإن أسلوب المعاملة التي بلغتهم من الشيخ باقشير وعـ ـدم غضـ ـبه عليهم أو رفعهم إلى الحكام مستعيضاً عن ذلك بالدعاء لهم حَرَّكَ في نفوس هؤلاء البداوة ما قد حرَّكَتْهُ في أنفسهم أختُهم الصالحةُ التقية من الفطرةِ النقيةِ والتوبة الخلصاء ، فأَنَّبَتْهُمْ أنفسُهمْ وتابُوا وأنابوا.

وكانت هذه الحادثة عاملاً مساعداً وسبباً مسانداً لأختِهم على استمرار دعوتها وعوناً على استمرارها في أسلوب حياتها الروحية. ولم يقف أثر الهداية عند هذا الحد بل تروي بعـ ـض المصـ ـادر أن

أخويها عمر ومحمد تأثّرا بدعوتها وموقفها الثابت ، ومن ثم تَحَكَّمُوا معها للشيخ محمد بن عبدالله القديم باعباد ، كما امتد أخذهم مثلها بعد ذلك عن بقية شيوخ الوادي وأكابرهم [1] .

شيوخ الأخذ للشيخة سلطانة

نَضَجَت المفاهيمُ الفطرية التي اكتسبتها الشيخة سلطانة من داخل هذا الواقع البسيط، وبدأ مفهوم الأخذ والارتباط بأئمة الطريق يُلِحُّ على قلبها ويزعجها في مسيرة الإيمان ، ونداء الذَّوق المتنامي يحدوها إلى أخذ العهد والتحكيم طريقةً وسلوكاً لتصبح في واقع الحياة عنصراً مسؤولاً ومتدرجاً ضمن مدرسة ذات أبعاد .

وكان أول من وضعت عليه حملَ الأخذ وسند الاتصال بهذه الطريق هو الشيخ العلامة الناسك محمد ابن عبد الله القديم باعباد ، وكان مقيما بالغرفة قريباً من بادية الشيخة سلطانة ومسكن قبيلتها. ومن هذا الباب الصوفي انفتح لها تَسَلْسُلُ المَنْحِ والعطاءِ الكسبي ثم

(١) المصدر السابق ص٣٠٩ ، و« الجوهر الشفاف » (٢: ١٤) .

الوهبي زيادةً على ما نالته بجِدِّها وصبرها ، وقد كانت من أهم مميزاتها أنها عاشت مُتَبتِّلَةً عازبةً لم ترض بالزواج ولم تستشعره كمطلب، بل استعاضت عنه بالاتجاه الأوسع وهو استجابة مطلب الروح، المطلب الذي تغذت به جوارحها منذ صباها. هذه الجوارح التي تنامى فيها أثرُ الطاعات وملءُ شواغر الأوقات عبر حياة الصبا واليَفاع ، ما بين رياضاتٍ نفسية وتوجُّهاتٍ قلبية إلى المولى سبحانه وتعالى .

حتى سمت هذه الرغبات الروحية فوق كل شيء وأثمرت في سلطان الجوارح « القلب » ثوابتُ أخلاقيةٌ وضوابطُ نفسيةٌ وهمةٌ روحيةٌ يصغر تجُاهَها كلُّ مطلب جسديٍّ وشهوة ولو كانت من حلال.

ومن هذا المنطلق السلوكي العالي صارت روح هذه المرأة الصالحة فَيّاضَةً بالشفافية الإنسانية المهذَّبة بالطاعات ، بل صار من ثمرات شفافية الروح نموُّ الذوق من جهة ، وسهولة الأعمال الصالحة على جوارحها من جهة أخرى، حتى أثر عنها كثرةُ مرائيها للنبيِّ صلى اللّه عليه وآله وسلم.

وهكذا اتجهتْ حاملةً هذا المَطْمَح نحو شيوخ العصر والمصر تزورهم في بيوتهم وتغشى أطراف مساجدهم وتجلس في محاضر ذكرهم ومواجيدهم ، وقد بلغ إلى مسامعهم خبرها ووصل إليهم تفرُّدُها عن جملةِ ما حولها ، وما ترسخ في قبيلتها وقومها من قوةِ تأثيرها وأثرها . فكان لها بهذا الاتصال أعظمُ الشَّرف جملةً وتفصيلاً، وارتقى عندها مفهوم الاتصال إلى كونه سبباً للاتصال بدَوحَة المصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم ممَّثلاً بأبنائه من أهل بيته.

ولهذا أدركت حقيقة المسؤولية الشرعية تجاه هذه الذرية ، فكانت تقول لبعض شيوخها من آل باعلوي: « وعِزَّةِ المعبود لو في لَحْمِي لك مصلحةٌ لَبَرَيْتُه » ، وتقول في مذكراتها للناس: « إني أرى لآل باعلوي أشياء فوق الناس » ، تعني منازل ومواهب فوق منازل ومواهب من سواهم من المشايخ والأولياء [1].

وكان أكثر اتصالها وارتباطها بالشيخ عبد الرحمن السقاف وأولاده ، ولها فيهم العديد من المقالات والعبارات التي تدل على

(١) « الترياق الشَّاف » ص٤٩ .

مدى إكبارها وإجلالها لآل البيت النبوي عن حرارةِ صدقٍ وإيمانِ تجربةٍ وفراسةِ إيمانٍ ، لا مجاملةً أو تزلُّفاً أو تكلُّفاً .

فالشيخ عبد الرحمن السقاف كان آنذاك رجلَ العصر وإمامَ ـه ، وكان كثير السفر إلى نواحي تريم داعياً ومعلماً وهاديا . وكانـ ـت بادية العر حيث تقيم ((الشيخة سلطانة)) إحدى لهذه النواحي الـ ـتي يتردد عليها بين الحين والحين. وزاد تردده على تلك الناحية بعد أن تزوج بها على امرأة من تلك القرية [1]، وفي كل مرة يأتي إلى هذه القرية يجلس في مسجدها لنشر العلم والـ ـدعوة إلى اللّـ ـه وعقـ ـد محاضرات الذكر [2] ، وفيها يجتمعُ عليه الناس زَرافاتٍ ووِحـ ـداناً يأخذون عنه ويستمدون منه وتبتهج الناس به أيَّما ابتهاج .

ولأجل هذا الحال ولحقيقة ما يشهده الصالحون كانت الشـ ـيخة سلطانة تقول: إذا أراد الشيخ عبد الرحمن رضي اللّه عنه أن يجـ ـيء

---

(١) ذكر ذلك صاحب ((الجوهر الشفاف)) في حكاية رواها الشيخ محمد بن علـ ـي الزبيدي أخو الشيخة سلطانة (٢: ١٤) ، وذكرها مرة أخرى في حكاية عـ ـن الشيخ عمر بن عبد الحق بن بخيت (٢: ٣٠) من ((الجوهر)) .

(٢) ورد ذلك في ((الجوهر الشفاف)) خلال حكاية ذكرها المؤلف عن عبد الرحيم الخطيب (٢: ٦٦) .

عندنا أرى قبلَ قدومه بقليلٍ مكانَنا وما حوله متعشِّباً كعشب الغيث الغزير ، ثم أسمع بعد ذلك منادياً يقول : جاءكم السلطان ابن السلطان (١) .

وهذه السلطنة التي تتحدث عنها هذه المرأة الصالحة إنما هي السلطنة الروحية ، وكانت حقيقةً تمثلُ مقامَ سلطنةٍ ومملكة تحقيقاً لقول الشاعر :

مُلُوكٌ على التَّحقيقِ ليس لِغَيرِهِمْ
مِنَ المُلْكِ إلا إسْمُهُ وعِقابُهُ

وفيهم يقول الشيخ أبومدين :

ما لَذَّةُ العَيشِ إلا صُحْبَةُ الفُقَرا
هُمُ السَّلاطِينُ والسَّاداتُ والأُمرا

وقد امتلأت جوانح الشيخة سلطانة بالشيخ عبد الرحمن حتى صارت تَشْهَدُه في غالب أحايينها لِمَا طَرَأَ عليها من قوة التعلق وصدق الوِجهة ، فها هي تُمَيِّزُ هذه الخواطر الواردة عليها عند ذكر الأولياء والصلحاء والشيوخ الذين ارتبطت بهم في سلوك الطريق .

---

(١) « الجوهر الشفاف » (٢: ٧٥) .

((كلٌّ مَن جاء عندي من الأولياء عَلِمْتُ به قبل وصوله ، فـ إذا وصل دخلَ عليَّ الباب إلا الشيخ عبد الرحمن فإني لم أشعر بـ ـه إلا وهو قائمٌ عندي)) .

وتفسير هذه العبارات لا يرضخ لمفهوم الظاهر بل ربما هو لما يطرأ عليها في سرها من ورود مدد الأولياء وأثرهم على الـ ـروح . وللأولياء سِرٌّ يميزون به الأمور.. بل وقد ينكشف لهم بنـ ـور اللّـ ـه بعض ما يدور.. وجاء في الأثر ((اتَّقُوا فراسةَ المؤمن فإنَّه ينظرُ بنور اللّه)) ، ومن هذا المطلع النوراني تقول الشيخة سلطانة : ((كُلَّ وليٍّ للّه تعالى قد عَرَفْتُهُ جَمّاً أو قليلاً)) . قالت : ((ومنهم مَن عرفـ ـتُ حاله إلا الشيخ عبد الرحمن)) .

أما علاقتها الروحية بالشيخ أبي بكر السـ ـكران ابـ ـن الشـ ـيخ عبدالرحمن السقاف فكانت لا تَقِلُّ عن علاقتها وارتباطها بأبيـ ـه ، وكان الشيخ أبوبكر السكران كثيراً ما يتردد على قريتها على أَثَـ ـر والده في نشر العلم والدعوة إلى اللّه . وإلى هذا أشـ ـار صـ ـاحب ((الجوهر الشفاف)) بقوله:

وكان الشيخ أبوبكر رضي اللّه تعالى عنه كثيراً ما يزور سلطانة المذكورة ، وبينه وبينها صُحبةٌ ومحبةٌ عظيمة، وإذا أراد القدوم عليها

تقول لأهل بلدها قبل قدومه إليهم بيومين أو ثلاث : ((رَحِّبُوا بالسلطان ابن السلطان ، إني سمعت الشاووش [1] ينادي بقدومه ، وأرى الغاشيةَ على رأسه ، والملائكةَ تُشَيِّعُه أمامه وخلفه)). وتقول: ((إني أسمع النوبة دائماً تضرب في السماء بالمشيخة للشيخ أبي بكر)) [2] .

---

(١) الشاووش كلمة أعجمية . وأظنها تركية . تعني قائد الحرس أو زعيم الفريق ، وتقصد هنا هواتف البشارات .

(٢) وكان من أسباب تردده على قرية العر تزوجه بها كوالده ، ذكر ذلك صاحب ((العقد النبوي)) ص٨٣ وكان زواجه بها على الشيخة فاطمة بنت فاضل الزُّبيدي ، وأخذها إلى تريم ومكثتْ معه عشر سنوات ولم تنجب له ففارقها ثم تزوجها من بعده الشيخ عمر المحضار وحملتْ له ببنتٍ سماها مريم ، وقد ذُكر ذلك في سياق حكاية تشير إلى علاقة آل الزُّبيدي بآل عبد الرحمن السقاف .

وقولها : ((إني أسمع النوبة)) حكايةٌ عن واقع الحال لما يجري في مكنون القضاء بتقديم الشيخ أبي بكر على الجميع، ويطلق أيضا لدى الصوفية اسم ((النوبة)) على مجمع أرواح الصالحين في عالم البرزخ، وأما الغاشية على رأسه فالمقصود إكليلُ مظهرِ الولايةِ وأنوار الجاه والمظهر النوراني لطلعته السَّنِيَّة ، وأما تشييع الملائكة فهو محقوقٌ به، وقد ورد : ((إنَّ الملائكة لتَضَعُ أجنحتَها لطالب العلم رِضىً بما يصنع)) فكيف بناشر العلم وحامل رايته ؟

وقد منح اللّه الشيخة سلطانة البركة في العمر حتى أدركت عقب الشيخ أبي بكر السكران ، فكانت تعامل الحفيد معاملتها للأب والجد .

فكما كانت تُعظم الشيخ أبابكر السكران في حياته فقد كانت تقول فيه بعد مماته : ((لما مات الشيخ أبوبكر رضي اللّه عنه وهبه اللّه تعالى مواهبَ عظيمةً لا أعرف أحداً من الأولياء أُعطي مثلها إلا أن يكون أهلُه المتقدمون))[1] .

وكذلك كانت مع بقية أبناء الشيخ عبدالرحمن السقاف كالمحضار [2] والشيخ حسن وسيأتي في حديثنا عن الأدب الصوفي للشيخة سلطانة نموذجٌ من أشعارها الذي كان بسبب حوار جرى بينها وبين الشيخ حسن بن عبدالرحمن السقاف في مجلس والده .

---

(١) ((الجوهر الشفاف)) ص١٣٤.

(٢) ورد في ((العقد النبوي)) (٢: ١٢١) أن الشيخة سلطانة رضي اللّه عنها قالت: ((رأيت الشيخ عمر بن عبد الرحمن . رضي اللّه عنه ونفع به . في قبة من نور مرتفعة في السماء وجميع الأولياء تحتها وهي فوقهم مثل النجم)) .

أما محبتها وإجلالها للسيد عبد اللّه العيدروس ابن أبي السكران فقد أشار ((الجوهر الشفاف)) إلى ذلك برغم أن العيدروس في ذلك العصر لازال صغيراً .

جاء في قسم الحكايات ص١٤٦ قوله : ومنها ما جاء عن الرجل الصالح معروف بن أبي عباد وسلطانة بنت علي الزُّبيدي كثيراً ما يعظمون الشيخ عبد اللّه ويجلونه ويستعظمون ما وهبه اللّه تعالى. وقال بعض الثقات: أتيتُ يوماً عند العارفة باللّه سلطانة بنت علي الزُّبيدي فجعلت تمدح الشيخ عبد اللّه بن أبي بكر وتعظمه وتذكر في صفاته ، ثم قالت لي بعد ذلك : ((عليك أمانةٌ إنك إذا وصلتَ تريم تُقبِّل على رأسه)) ، فلما دخلت تريم وجدتُه يلعب مع الصبيان ففعلتُ ما أمرتني به وفي ذلك يقول مؤلف ((الجوهر الشفاف)) شعراً :

وبنتُ الزُّبيديْ كم أشاروا وأفصحوا

بتعظيمِه شاباً لجَزْلِ عَطِيَّةِ

أي : بتعظيم الشيخ عبد اللّه العيدروس وهو في سن شبابه لما وهبه اللّه من جزيل العطيات والمواهب.

الشيخة سلطانة والأدب الصوفي

أثمرتْ شفافِيَّةُ الطاعة واستمراريَّةُ الذكر والفكر اطمئناناً في قلب الشيخة سلطانة ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ وصار كل شيء في الحياة يحرك وجدان المرأة التقية إلى معرفة الإله سبحانه.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ
تَدُلُّ على أَنَّهُ واحِدُ

ومن هذا المنطلق كانت حضرات الذكر إحدى وسائل شحذ الذوق وإحدى وسائل قراءة النصوص الأدبية بمفهومٍ صوفيٍّ راقٍ.. لا تمتُّ إلى فهم الناس الآخرين أمام المحسوسات بصلة .. إلا من أهل هذا القاموس ومن أهل ذوقه.

ومن ذات المنطلق أيضا كانت الشيخة سلطانة تعبر بالشعر الصوفي غير المتكلّف عن أصدق أحاسيسها وحرارة وجدانها . وكان غالب أشعارها في المحبة الإلهية والأنس باللّه وطاعته ، ومنه جزء آخر في مدح شيوخها وتعظيم أحوالهم ومقاماتهم [1] ، ويتميز

(١) منها ما دُوِّنَ في ((ديوان الحضرة)) ص١٨-١٩ وتقولها في الشيخ عبدالرحمن

شعر الشيخة سلطانة بميله إلى الأسلوب الشعبي الـ ـدارج والشـ ـعر الإنشادي الغنائي ، وكثير منه ما ينشد إلى اليـ ـوم في ((حضـ ـرة الشيخ السقاف)) بتريم [1] .

وذكرتْ كتبُ التراجم أن الشيخة سلطانة كانت تأتي إلى تـ ـريم وتجلس في أخريات ((مجالس الشيخ عبد الرحمن السقاف)) تستمع للدروس العلمية والأناشيد الصوفية وتتبادل مع المشايخ الحديث في مسائل العلم وغوامضه وقد تلقي على الحاضرين بعـ ـض الأشـ ـعار الصوفية لها ولغيرها.

السقاف :

ألا يـ ـا مَرْحَبـ ـاً بالمُقَبلينـ ـا ... وبالشيخِ الذي فيهم يُضِـ ـينا

سراجٌ عند ظُلْمـ ـاتِ الليـ ـالي ... يُسَلّي كلٌّ من قلبه حزينـ ـا

لأنهْ خـ ـاضَ في بحـ ـرِ المحبـ ـةْ ... وحافظ سادته عهداً مَكينـ ـا

ألا يـ ـا رَبِّ فانفعنـ ـا بجاهِـ ـهْ ... نعم يا ربِّ إنـ ـا مـ ـذنبينا

ونختمُ بالصلاةِ علـ ـى محمـ ـدْ ... صلاةً دائمةْ في كـ ـلِّ حينـ ـا

(١) أسس هذه الحضرة المباركة الإمام الشيخ عبدالرحمن السقاف المتوفى عام ٨١٩ من الهجرة .

وفي أحد هذه المجالس دار حديث عن سبيل المباسطة بينها وبين الشيخ حسن عبد الرحمن السقاف بحضرة أبيه ، ومفاد الحديث أنه لا يليق أن تكون ((أنثى الجِمال)) تُسابق وتضارع الذكور ، وقال في ذلك شعرا :

يا ما اسفَهِشْ ما بدا بَكْ رَهْ تِم اري جم الْ

فاستأذنت ((سلطانة)) الشيخ عبد الرحمن أن تجيب على ول ده فأذن لها فقالت بدون إبطاء :

الحم لْ بالحم لْ والزاي دْ ل بنْ والعي ال

وتشير في هذا الشطر أنها أنثى ولكنها حملتْ حملَ الرجال م ن مقاماتٍ وأحوالٍ، وزادت على ذلك بالنفع الذي يعرف في الأنث ى باللبن إشارة إلى التربية ، والعيال إشارة إلى حفظ النوع بالسلالة ، وهذا ما لا يستطيع الرجل حمله والقيام به ، فسُرَّ الشيخ عبد الرحمن بسرعة بديهتها وحسن جوابها [1] .

(١) ((أدوار التاريخ الحضرمي)) ص٣٠٩ .

الشيخة سلطانة ودورها في نشر العلم

تميزت المدرسة الصوفية بحضرموت باهتمام شيوخها وعلمائها وتلامذتها بنشر الدعوة إلى اللّه تعالى وتعليم الجهال والبداوات وبذل غاية المجهود في ذلك بأبسط المقومات والوسائل.

والعجيب في هذا التضافر أن الدعوة إلى اللّه تنشر على هذا النمط إلى اليوم ، وربما كانت في بعض الأحوال على أيدي التلامذة والمريدين في أول سلوكهم وطلبهم للعلم. وذلك لما يخالط قلوبهم من بشاشة الإيمان وحرارته وتشجيع الشيوخ على ربط العلم بالعمل ، وربطُهما معا بالإبلاغ.

وعلى هذا الحال نشأت الشيخة سلطانة ونمت وترعرعت ، بل وتفتحت مواهبها على سماع الدعوة إلى اللّه ومجالسة أهل العلم والذكر، وبدأت منذ ذلك الحين تقوم بنشر ما اعتلج في صدرها وتدعو إليه أقاربها وقبيلتها .

وأما في مرحلة ظهور مقام السلطانة وتعرفها على أساليب نشر الدعوة إلى اللّه في سائر بلاد حضرموت ، وترددها على تريم وما جاورها من مواطن المشايخ الأكابر، فقد رأت أن للعلم وللتعليم مواقعُ وأبنيةٌ تَهتَمُّ بالناشئة وتعتني بالفقراء وتأوي المحتاجين وأهل

الفاقة والعوز ، فلم تَأْلُ جهداً في بذل المزيد من الوقت للدعوة إلى بناءِ رباطٍ متكاملٍ في نواحي بادية قبيلتها ، يكون لها الإشراف عليه ونفقته ، فتمَّ لها ذلك في أقربِ وقتٍ وزمان، حيث ذكرتْ كتب التراجم أنها بَنَتْ رِباطَها في قريتها ولكنهم اختلفوا في ماهيَّته ووظيفتِه ، فبعضُهم وصفوه بأنه رباطُ علمٍ وطلبٍ وإيواءٍ للدارسين، ومنهم من وصفه بأنه « رباط الفقراء » لإنزال الضيوف والغرباء وإعانة المحتاجين .

وأَيّاً كان المقصد فالهدفُ سامٍ والمقامُ ملائمٌ لكلا الحالين ، والمرحلةُ ذاتُها كانت تحتاج لأربطة للفقراء كما تحتاج لأربطة العلم، والفقراء الصوفية لا يجمعهم في الأربطة غير الذكر ومجالس الحضرات والعلم ، وكان شيوخ الزمان يميلون إلى التردد على هذه الأربطة لجمع الفقراء وتعليمهم وعقد حلقات الذكر معهم ، وقد بقي هذا الرباطُ المذكور بعد وفاة الشيخة سلطانة مدةً من الزمان . وهو جزءٌ لا يتجزأ من حَوطَتِها المعروفة باسمها إلى اليوم . تلك الحوطة التي ظَلَّتْ رَدْحاً من الزمن ولها من الاحترام ونشر الأمن وحفظ الوارد والصادر ما يجعلها في مَصَفِّ العديد من الحُوَطِ الآمنة في أشد حالات الخوف والحرب والفتنة ، وكان ذلك كله يعود إلى

الجاه الواسع والمقام الكبير والصيت الذائع الذي بلغته الشيخة سلطانة في حياتها .

وقد ظل هذا الجاه والوجاهة من بعدها في العديد من أقاربها وإخوتها من المشايخ « آل الزُّبيدي » الذين ظلوا في كل الأحوال مرتبطينَ حِسّاً ومعنىً بمدرسة وبأشياخ آل البيت في تريم وسيؤون وغيرها ، يأتمرون بالمعروف ويُوالُونَهم في البأْساء والضَّرَّاء ويبرهنون على تلك المحبة الخالصة بالقول والفعل.

نهاية المطاف في حياة الشيخة سلطانة

عاشت الشيخةُ سُلطانة كلَّ حياتِها مَضْربَ المَثَلِ للمرأةِ الحضرميَّةِ الصالحةِ التقيَّةِ النقية ، جامعةً بين العلم والعمل وبذل المجهود في الحياة الاجتماعية المستقيمة، مؤديةً كافة الحقوق لقبيلتها ولشيوخها ، وقبلَ كلِّ هذا قائمةً بحق ربها في أصدق الصور وأخلص النماذج والأمثلة.

ومع هذه الشهرةِ الواسعة والجاهِ العريض في الأوساط الحضرمية فإن التراثَ لم يحفظ لنا عنها ترجمةً شافيةً ووافيةً ، وإنما بقيت

شَذَراتٌ قليلةٌ متفرقةٌ في كتبٍ شتى.. وحسبنا منها ما عَبَّ ـرَ بـ ـه الأستاذُ الشاطري في « الأدوار » : أنها قامت بدورٍ إصلاحيٍّ رَفعتْ به شأنَ قومِها وبلدها .

ولـ ـو كـ ـانَ النِّسـ ـاءُ كمَـ ـن ذَكَرْنـ ـا

لَفُضِّـ ـلَتِ النَّسـ ـاءُ علـ ـى الرِّجـ ـالِ

وزيادةً على هذا فإنها أثبتتْ بالملموس أنَّ طريق التصـ ـوف في حضرموت لم تكن دعوةَ انعزالٍ وخُمولٍ ورَهبَنَةٍ قاطعَةٍ عن المشاركة في الحياة ، وإنما هي دعوةُ شرفٍ وعفَّةٍ ومشاركةٍ نـ ـزيهةٍ وواعيـ ـةٍ في كلِّ ما يبعث على نشر محاسن الإسلام وإقامة حدوده في الذات والقبيلة والحياة ، ليس في عالم الرجال وحدهم ، وإنما للنسـ ـاء في هذا المجال باعٌ واسعٌ ومجدٌ أَثيل ، حيث عرف الواقع الحضرمي من النساء الصالحاتِ عدداً كبيراً، نرجو اللّهَ تعالى أَنْ يوفقنا لإبرازِ مـ ـا تيسر لنا من تراجمهم وأخبارهم ليقرأَ الجيلُ عنهم حقـ ـائقَ تشـ ـفي غليلَ الصدور،وتشهد للسلف الصالح بالعمل المبرور.

وقد كانت وفاة الشيخة سلطانة بمنزلها الكائنِ في حوطتها ، ودُفنتْ هناك بعد أن شيَّعتها حضرموتُ في موكبٍ مَهيبٍ من عام ٨٤٣ هـ . رحمها اللّه رحمة الأبرار .

الخاتمة

كان هذا واحداً من الأمثلة النِّسوية ذاتِ الارتباط بثقافةِ مرحلةٍ ، ونموذجاً من النماذج السليمة في عالم التصوف.. تلك المدرسة الجامعة بين العلم والعمل ، وبين الإيمان باللّه والتوكل عليه ، وبين الأخذ بالأسباب .

وللنساء في مدرسة السلف الصالح مكانٌ ومَقامٌ ، وقد تحدثتْ بهذا الحال والمقام هذه المرأة المسلمة التي وُلدت في حياة البدو وتأثرتْ بمدرسة آل البيت ، وبرزت في الواقع الحضرميِّ إحدى نماذجِه الراقية ، والنموذجُ الراقي في حياةِ المرأة الصالحة قديماً هو التقوى والقيام بالواجبات ديناً ودُنيا، حيث لا مجالَ عندَهم للخمول السَّلبيِّ ولا عزلةَ إلا عن الشرِّ وأهله ، وقد صنعوا بهذه القاعدة مجتمعاً صالحا.. ومجداً باذخا.. رَحِمَهُمُ اللّهُ رَحمَةَ الأَبرار .





الفهرس